العمارة في السودان ١٩٠٠ – ٢٠١٤: مهنةٌ تصارعُ العقبات

د. عمر صديق عثمان
د. إبراهيم زكريا بحر الدين
د. أميرة عمر صديق عثمان

مقدمة

لعلها قناعة مشتركة بين جميع الأمم أن مفردة "تعمير"، وكل مشتقاتها وبدائلها مثل عمارة، معمار، مأوى، سكن،... تبعث في النفس شعورًا طيبًا قد لا تستطيع كلمة غيرها منافسته. هذا لما تحويه هذه الكلمة من قيم إيجابية تستوعب كلّ مناحي الحياة الكريمة والآمنة. وتتمدّد هذه القناعة لدرجة أنّ من لم تستوعبه مهنة العمارة التي هي من مشتقات تلك المفردة قد يمضي جزءًا مقدرًا من عمره ليتمكن من الاستفادة ممّا تقدّمه من خدمات. عليه فإن الكتابة عن مسيرة العمارة في السودان أمر محفّز في ذاته رغم ندرة المعلومات الموثّقة عن هذه المهنة. ويعزى ذلك في المقام الأول إلى الظروف الاستثنائية التي مرّت على هذا البلد منذ حلول الاستعمار البريطاني-المصري (١٨٩٨ – ١٩٥٦)، ولكن، ورغم تلك الصعوبة يمكن تقديم سرد تأريخي لمسيرة إعمار أرض السودان أثناء مرحلة الاستعمار وما تلاها (١٩٠٠ – ٢٠١٤)، وذلك عبر قراءة المنشآت الموجودة فوق الأرض والتي يوجد جلّها في العاصمة الخرطوم. ويقيننا أنّ هذه المقالة، رغم قصورها، قد تُقدّم تنويرًا يؤمل منه أن يكون محفّزًا لبحوث توثيقية أكثر عمقًا تعتمد على استقراء الواقع المعاش لاستنباط نظرية معمارية تستوعب حلقات تطور إعمار السودان عبر القرون. وعليه يرجى أن تساهم هذه العجالة في إلقاء حجرٍ على سطح تلك البركة الساكنة بغية استثارة الباحثين لتوثيق التراث المهنيّ الثري، الذي يمتد طوال سبعة آلاف عام، تخلّلها الكثير من الإنجازات والانكسارات.

مرحلة التحديث الأولى (١٩٠٠ – ١٩٢٠)

في العام ١٨٩٨ تمكّنت القوات البريطانيّة بالتحالف مع القوات المصريّة من هزيمة جيش المهدي الذي كان استردّ حكم السودان من الأتراك في العام ١٨٥٨. ومن المعلوم أنّ القوّة المستعمرة وجدت البلاد في حالة مزرية. كان الانهيار يكاد يكون شاملاً كلّ مناحي الحياة، ومنها العمارة. وكان لا بدّ للغزاة من محاولة إصلاح البنى التحتيّة، على الأقل في العاصمة الخرطوم، كي يتمكّن الحكّام الجدد من ممارسة الحكم وتنفيذ مخطّطات الاستعمار، وعلى رأسها نهب مقدرات البلدان المستعمَرة.

وبما أنّه كان للبريطانيين خبرات متقدمة على خبرات شركائهم المصريين، كانت لهم اليد الطولى في تأمين متطلبات الحكم الجديد. ومن الطبيعي أن تكون العمارة من أولويات مرحلة الإعمار التي أطلقوها. وقد أحضر البريطانيّون معهم معارفهم الجديدة في نشأة العمارة الحديثة، التي تبدّت في عمارة القصر البلوري بمعرض لندن الشهير في العام ١٨٥١. كما وفّرت أرض السودان البكر للمهندس ومخطّط المدن اللورد كتشنر، الذي قاد حملة الغزو، فرصة تطبيق بعض النظريّات الهندسيّة المُستحدثة آنذاك. وساعده على ذلك عدم توفر خبرات معتبرة في مجال التصميم والإنشاء في السودان إبّان تلك الفترة. ولمّا كان من الضروري إقامة منشآت توفر للحاكم الجديد وطاقمه مواقع الحكم والخدمات والسكن، بمستوى يقارب ما عرفوه في وطنهم الأمّ، كان لا بدّ لكتشنر من إحضار مهندسين من بريطانيا، وكوادر مساعدة لهم من مصر وبلاد الشام، وهذا تمّ باحترافية مطلقة كان لها أثر طيب على ممارسات العمارة في السودان وفق المعطيات الحديثة آنذاك. وعلى الرغم من البطء الذي لازم عملية التحوّل من مرحلة العزلة القاسية التي فرضها نظام المهدي، وجد الناس ثغرة للتعرف على ما في العالم من مستجدّات في هذا المجال.

من بين محاولات التحديث التي قام بها كتشنر كانت دعوته مخطّط مدن بريطاني تقدّمي، هو ماكلين، ليضع مخططات لمدينة الخرطوم. وكان ماكلين متأثرًا بنظرية المدينة الحديقة، والتي بشّر بها مخطّط المدن هاوارد في نفس عام الغزو البريطاني-المصري. وبدأ كتشنر، في مجال البناء، بترميم سرايا غردون (قصر الحاكم العام). وكان ذاك بداية لأعمال معمارية مدينيّة أعقبتها دعوته الشعب البريطاني للتبرع بغية إقامة مؤسسة تعليميّة عُليا، تحت اسم كلية غردون التذكارية، والتي غدت اليوم جامعة الخرطوم، مُمثّلة منذ افتتاحها بحضور كتشنر في العام ١٩٠٢، رمزًا من الرموز التي يعتزّ بها السودان. وفاقت تبرّعات الشعب البريطاني كلّ التوقّعات، وذلك لتنفيذ هذه الكلية التي صمّمها معماري الخديوي توفيق باشا، ونفّذ تفاصيلها المعمارية مجند بريطاني يدعى فورنج. والأخير تعلّم العمارة من الكتب التي وفّرها له كتشنر. ومن جانب آخر، يُرجع إلى كتشنر بناء كنيسة جميع القديسين قرب القصر الجمهوري، والتي صمّمها المعماري الشهير شولتز. وظلّت كنيسة جميع القديسين، برغم التشويه الذي طالها وتحويلها إلى متحف للقصر الجمهوري بأمر النظام الحالي، معلماً معمارياً بارزاً ومتميزاً في مدينة الخرطوم. وحتى لا نحرم كتشنر حقه تجاه السودانيين والمصريّين على حدّ سواء، يجدر ذكر أنّه أمر، بالتزامن مع تشييد الكنيسة، بتشييد مسجد جامع في موقع مميّز ضمن مركز المدينة التجاري (ميدان عباس). وظل هذا المسجد تحفة معمارية متفردة حتى تاريخه.

المرحلة الاستعمارية الثانية (١٩٢١ – ١٩٥٦)

لا شك أن التأثير السلبي للحربين العالميّتين في تطور العمارة عبر القارة الأوروبية كان واضحاً وجلياً، وانعكس ذلك على جميع المستعمرات الانجليزية، من ضمنها السودان. لكنّ تطوير المعارف المعمارية في هذا البلد ظلّ بطيئًا. ويمكن تمثيل عمارة المرحلة، على سبيل المثال لا الحصر، بإعادة بناء مسجد أرباب العقائد، الذي سمي باسم الملك فاروق (١٩٥١). يعتبر هذا المسجد، الذي صمّمه مهندسون من مصر، تحفة من العمارة الإسلاميّة التي استوعبت نظريات العمارة الحديثة. وتمّت الاستفادة في أعمال بنائه من خبرات وأيدٍ عاملة محليّة دُرّبت في وزارة الأشغال بالخرطوم، التي كانت منذ إنشائها و حتى ستينات القرن الماضي، مركزاً مهمًا لتطوير مهنة العمارة في السودان. أما المثال الثاني لعمارة هذه الفترة فهو مبنى بلديّة أم درمان الذي اكتمل بناؤه في العام ١٩٥٤، وصمّمه المعماري مانيوس (أريبا) من وزارة الأشغال العامة ونفّذته الوزارة بفضل خبرات محلية متميّزة.

عمارة مرحلة ما بعد الاستقلال (١٩٥٦ – ٢٠٠٠)

منذ مطلع خمسينات القرن العشرين وحتى تاريخ نيل السودان استقلاله في العام ١٩٥٦، مرت على البلد فترات عصيبة سببها تفرق آراء السياسيين بين التبعيّة للقوى المستعمرة، بطريقة أو بأخرى، وبين حصر السيادة بيد الوطنيين بعيداً عن الاستقطاب الخارجي. وكان لتلك الانقسامات السياسية أثرها المدمّر على الكثير من الخطط الطموحة التي حلم بها صانعو الاستقلال. وبناء على هذا لم يجد آباء التحرير بدأ من تأجيل الكثير من مشاريع الإعمار وتركيز الجهد على استكمال مرحلة التحرير. ومن المؤكد إن ذلك التأجيل أصبح قدراً لم يستطع السودان الفكاك منه حتى اليوم. وعلى الرغم من ذلك، لم تتوقف محاولات المعماريين لتحقيق بعض الطموحات. وأنتجت هذه المحاولات القليل من المباني المتميّزة، منها على سبيل المثال عمارة أبو العلا التجارية، التي لا تزال معلماً بارزاً في مركز الخرطوم التجاري. صمّم هذا المبنى المعماري جورج ستيفانيدس بتكليف من وزارة الاشغال، إذ كان للأخيرة الفضل الأوّل في إطلاق العمارة العامّة، كما الخاصّة، حتى في حقبة ما بعد الاستقلال. فندق السودان، الذي صمّمه المعماري الهندي الأل فارتينال الذي عمل كمهندس في هيئة سكك حديد السودان، كان أحد المباني المتميّزة التي تمثّل تلك الفترة. يحتل هذا المبنى موقعاً متميّزاً عند ملتقى النيلين الأزرق والأبيض (المقرن)، وهو يشكّل نقطة جذب للسياح، حيث تتاح لهم فرصة مشاهدة غروب الشمس من شرفات الفندق.

صراع السياسيين المرّ الذي أعقب الاستقلال أضر كثيراً بمسيرة تقدم البلد. وكان من البديهي أن تتضرر بفعل ذلك الصراع قطاعات كثيرة من بينها العمارة. في نوفمبر ١٩٥٨ قام كبار ضباط الجيش بانقلاب عسكري حسموا به صراع السياسيين. ومن غرائب الصدف أن ذلك الحدث صبّ، على نحو مباشر، في مصلحة تطوير العمارة كما تبيّن لاحقاً.

كانت الحكومة الوطنية الأولى استقطبت البروفيسور البريطاني ألك بوتر لينشئ في عام ١٩٥٧ أول قسم للعمارة بجامعة الخرطوم. وكان هذا القسم الناشئ في بدايات تشكّله عند وقوع الانقلاب، والذي كان من أوّل قراراته قبول المعونة الأمريكيّة المتضمّنة في مشاريعها تطوير التعليم المهني بالسودان. وقد تصدّر مشاريع المعونة الأمريكيّة مشروع تشييد الكلّية المهنيّة العليا في الخرطوم ومدارس صناعيّة في كل عواصم الولايات التسع. وكلّفت إدارة المعونة المعماري بيتر مولر وشريكه المهندس الإنشائي روبير أيوب، اللذين افتتحا أول مكتب استشاري خاص في الخرطوم، بتصميم كلّ تلك المشاريع. وإحقاقاً للحق ينبغي القول أن المكتب ذاك أدّى المهمة بمهنية عالية مستخدماً أحدث نظريات العمارة، ممّا وفر لطلاب قسم العمارة